

الندوة العلمية

«التعايش الإسلامي المسيحي في تونس عبر العصور»

المنعقدة بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية

جامعة الزيتونة

تونس، في 3 ديسمبر 2003

أسس العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بتونس خلال العهد الحسيني

د. محمد العربي بوعزيزي

توطئة :

يعد الفتح العربي الإسلامي لتونس حدا فاصلا في تاريخها الحضاري، إذ أصبح الإسلام دينها، والعربية لغتها. فأضحت بذلك همزة وصل بين المشرق والمغرب، ونقطة ارتكاز للفتوحات العربية الإسلامية اللاحقة لبقية بلدان الشمال الإفريقي، والأندلس، وشمال البحر الأبيض المتوسط.

وإن المتتبع لتاريخ تونس العربية المسلمة، يجدها قد عرفت تعايشا سلميا بين أصحاب الأديان الكتابية، لا نظير له في تاريخ المجتمعات الإنسانية مع غيرها على الرغم مما خالطه من خطوب جسام، وتوترات

عُكِّرت صفوه، من جراء ظروف سياسية، واقتصادية، وثقافية، وحتى عسكرية. | مرور الحروب الصليبية بتونس، موت لويس التاسع بقرطاج، الإرساليات التبشيرية، الاستعمار الفرنسي للبلاد الذي استمر زهاء 75 سنة «1881 - 1956 م» |.

ويتنزل انعقاد هذه الندوة العلمية «التعايش الإسلامي المسيحي في تونس عبر العصور» في هذا المضمار.

وأعتقد أن تنظيم مثل هذه الندوة في نطاق نشاط «وحدة مقارنة الأديان» بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية بتونس، يأتي في إطار الدعوة إلى حوار الأديان والثقافات والحضارات، ونشر ثقافة التسامح والسلم والتعايش بين أبناء شعوب المعمورة في ظل عالم متغير.

ويتنزل تنظيم الندوة كذلك في إطار سعي تونس التغيير إلى بناء جسور الاتصال بين الشعوب، من أجل الاعتراف بالآخر والاستماع إليه واتصال الإنسان بالإنسان دون إقصاء ولا تهميش قصد بناء عالم تنعم فيه الإنسانية على اختلاف أديانها وحضاراتها بالأمن والاستقرار والسعادة.

وفي هذا السياق آثرنا أن نتناول في مداخلتنا «أسس العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بتونس خلال العهد الحسيني» عارضين أمثلة عاكسة لطبيعة تلك العلاقة بين الجانبين، والقائمة على التعايش السلمي، الذي كرس من خلاله التونسيون المسلمون روح التسامح الإسلامي في مواقفهم من النصارى الذين استقروا بالبلاد زمن الحقبة الحسينية، على الرغم مما تعرض له أولئك التونسيون من مهانة، وعسف من قبل البايات الحسينيين من ناحية، وتبشير، ومحاولة تنصير فجأة، وبمختلف الوسائل زمن الاستعمار الفرنسي التوطيني من ناحية أخرى.

كل ذلك يدفع بنا إلى جملة من الأسئلة نحاول من خلالها تجلية طبيعة تلك العلاقة التي عكست مدى تعايش أصحاب الديانتين : الإسلام والمسيحية، فضلا عن اليهودية، على أرض تونس التي كفلت لهم حرية

المعتقد، وحق ممارسة الشعائر الدينية، وحمى حق المغيرة والاختلاف على الرغم من خصوصية كل ديانة، وإن كان يجمعها الانتماء إلى عبادة إله واحد، وبقطع النظر عن مفهوم الإله عند كلّ ملة.

فعلى أي أسس قامت تلك العلاقة ؟ وما العوامل التي ساعدت على الحضور المسيحي بتونس ؟ وما طبيعة تلك العلاقات التي عكستها المعاملات بين أبناء الديانتين ؟ وهل كانت على وفاق مستمر أم شابها ما عكّر صفوها، وخاصة في ظل الاستعمار ؟

أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم :

أ - الأسس الشرعية : القرآن الكريم

إن الدارس لأسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم وخاصة المسيحيين يجدها تقوم على أسس شرعية، وعهود، ومواثيق، أبرمت في الغرض لإقرار مبدأ التسامح والتعايش الذي أقره الإسلام ودعا إليه، إذ لا يمنع الدين الخفيف من تعايش المسلمين والمسيحيين في مجتمع واحد⁽¹⁾. إذ الجميع تجمعهم وحدانية العبودية لله تعالى انطلاقاً من قاعدة الخطاب في الآية الكريمة :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾⁽²⁾.

وعلى أساس تلك القاعدة تعامل العرب المسلمون الفاتحون مع المسيحيين، لأن دعوة التوحيد هي دعوة جميع الرسل والأنبياء، بصريح الآية الكريمة : «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

(1) د. أسعد سمحرائي، أسس العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ص 64 من كتاب الإسلام بين المذاهب والأديان - دار النفائس بيروت - لبنان 1992.

(2) آل عمران : 46.

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» (3).

وتحكم التعايش الإسلامي المسيحي صلة المودة بين أبناء الديانتين التي أقرّها القرآن الكريم كما أكدت على ذلك الآية الكريمة «ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون» (4).

والتعايش الإسلامي المسيحي قائم على أساس حرية العقيدة التي صانته النصوص القرآنية التي أكدت على مبدأ التسامح في مستوى الاعتقاد من جهة وفي مستوى المعاملات من جهة ثانية كما جاء في قوله تعالى : «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» (5). وقوله جل شأنه : «لا إكراه في الدين فقد تبين الرشد من الغي» (6). وتبعاً لذلك أمر الإسلام المسلمين بمجادلة غيرهم من أهل الأديان الأخرى بالمنطق والعقل والحسنى : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتالي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم. وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (7). فضلاً عن قوله سبحانه : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتّي هي أحسن» (8).

وتطبيقاً لمبدأ التسامح حرص الدّين الحنيف على إنصاف جميع أصناف الملل والأديان والعدل بينهم كما أكد على ذلك القرآن الكريم : «لا ينهاكم الله

(3) البقرة : 136 .

(4) المائدة : 82 .

(5) الكهف : 29 .

(6) البقرة : 256 .

(7) العنكبوت : 46 .

(8) النحل : 125 .

عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين،⁽⁹⁾.

ب - السنة النبوية :

أقرت السنة النبوية مبدأ التسامح في الإسلام، وحثت عليه وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مثالا يحتذى في التعامل مع أهل الكتاب، وخاصة النصارى. ويشهد لذلك ما تناقلته كتب السير والمغازي.

فقد أكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران وحاورهم ومكنهم من الصلاة في مسجده، فقد أراد الناس منعهم فقال لهم : ادعوهم، فاستقبلوا المشرق صلوا صلاتهم⁽¹⁰⁾.

كما كتب الرسول الأكرم للوفد عهدا يؤمنهم فيه على أموالهم ويبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير،⁽¹¹⁾.

كما رويت عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث تحث على حسن معاملة الكتابيين⁽¹²⁾ منها قوله : «احفظوني في ذمتي، ومنها من ظلم معاها أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة ومن قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة».

ومن الثابت تاريخا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قبل الهدية من المقوقس عظيم أقباط مصر وكانت هذه الهدية «ماريا القبطية، التي بنى بها وأنجب منها ولده الوحيد إبراهيم، ولم يرفض الرسول الهدية بدعوى أنها جاءت من غير مسلم. بل تقبلها قبولا حسنا. وأوصى بأقباط مصر خيرا⁽¹³⁾.

(9) المتحنة ، 8.

(10) ابن هشام السيرة النبوية 217/2.

(11) د. عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ص 95 بيروت.

(12) د. أنور الرفاعي، النظم الإسلامية، ص 212، دار الفكر، سوريا 1973.

(13) د. محمد السيد الجليل، الأصولية والحوار مع الآخر، ص 48 - 49 دار قوباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة - مصر 1999.

ج - الموائيق والعهود :

وتعد الموائيق والعهود أو ما يعبر عنه بالاتفاقيات بلغة العصر اليوم من أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم، إلى جانب الأسس الشرعية من قرآن وسنة، فقد أرسى الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب ما عرف بـ «سياسة العهود⁽¹⁴⁾» التي تحدّد تحديدا واضحا أسس العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة بعد أن دخلت كتل كبيرة منهم في حوزة الإسلام. مثلما فعل مع أهل القدس فيما عرف بالعهد العمرية ...

فقد حوت كتب التاريخ نصوصا عديدة لعهود مختلفة منحها الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الخليفة الثاني، أو غيرهما، لأهل الذمة تُحدّد فيها حقوقهم وواجباتهم في ظل المجتمع العربي الاسلامي. وقد تعهّدها الفقهاء بكثير من الشّرح والتفصيل إلى حده التقنين مثلما تجلّي ذلك في كتب «الأحكام السلطانية» للماوردي وغيره من كتب الفقه والنظم الإسلامية.

ويتلخّص أهم ما جاء في تلك العهود بأن للمذميين حق الأمان على نفوسهم وأموالهم، وحق الحماية الدينية في الاعتقاد وممارسة الشعائر، وحق السّكن، ومزاولة الأعمال المختلفة، إلّا أنهم مقيدون في تغيير الدين فلا تغيير إلا للدخول في الإسلام، ولا يسمح بزواج المسلمة بغير المسلم⁽¹⁵⁾.

أمّا واجبات الذميّ فهي دفع الجزية كضريبة للدفاع عن الوطن للقادرين على حمل السّلاح | ولا يدفعها الشيخ العاجز والطفل الصغير والنساء |، وعدم الاجتماع على قتال المسلمين، وعدم فتن المسلم عن دينه، وعدم قطع الطريق عليه، أو قتله، ومعونة المشركين عليه، في قتال أو

(14) د. أنور الرفاعي النظم الإسلامية، ص 213 - 214.

(15) د. أنور الرفاعي النظم الإسلامية، ص 213 - 214.

تجسّس، أو إيواء أعداء الدولة، وعدم التعرض لكتاب الله ونبيّه أو للإسلام بما لا ينبغي⁽¹⁶⁾.

الحضور المسيحي بتونس خلال العهد الحسيني الاول : 1705 م - 1881 م :

تحدثنا المصادر التاريخية أن حسين بن علي تركي كان المؤسس الأول لدولة البايات الحسينيين [1705 م | ثم توالى الحسينيون على توارث السلطة الأكبر فالأكبر، في ظل جو مشحون بالفتن والإضطرابات. مثلما حدث في عهد مؤسس الدولة وكبير العائلة المالكة. والتي هي من أصل إغريقي، وبين ابن أخيه علي باشا وما لاقته الإيالة التونسية من حرب وفتنة طاحنة قسمت البلاد إلى حسينية وباشية. الأمر الذي أدى إلى تمزّق وحدة البلاد، وتدخل النفوذ الأجنبي في شؤونها الداخلية بسبب الضعف والوهن السياسي، والتفكك الاجتماعي، والتدهور الاقتصادي. فكانت الحقبة الحسينية حقبة عصيبة على العباد والبلاد والتي عرفت خلالهما الاحتلال الفرنسي في سنة 1881 م.

وفي ظل هذا الوضع المتردّي للإيالة التونسية تزايد النفوذ الأجنبي بها، بسبب لجوء البايات الحسينيين إلى الكفاءات الأجنبية، وإقامة علاقات اقتصادية وسياسية مع أبرز الدول الأوروبية، وعقد اتفاقيات تجارية معها، وفي مقدمة تلك الدول فرنسا وإيطاليا، وأنقلترا. مما ساعد على إقبال الأوروبيين على الإيالة التونسية، والاستقرار بها. وصحب ذلك حضور مسيحي كاثوليكي وخاصة في نهاية القرن السابع عشر للميلاد حين استقرت بالعاصمة ثم ببعض المدن الداخلية جماعة إخوان المذهب المسيحي Frère de la doctrine chrétienne من الطليان الذين عرفوا باسم «الإخوان الكبوسيين» Frères capucines الراجعين بالنظر إلى نائب رسولي لعازري «Lazarrite» مستقرا بمدينة الجزائر⁽¹⁷⁾.

(16) نفس المصدر السابق.

(17) عبد المجيد الشرفي، الحركة التبشيرية في تونس في القرن التاسع عشر - حوليات الجامعة التونسية، المصدر السابق.

وقد جاء هؤلاء «الإخوان» الكبوشيون إلى تونس تحت غطاء قيامهم بالشؤون الدينية بالنسبة للجمالية المسيحية المقيمة بالبلاد. وقيل إن مجيئهم كان لأغراض تجارية، أو الهروب من التتبع العدلي بالنسبة إلى مرتكبي الجرائم، فضلا عن اهتمامهم بضحايا القرصنة المسيحيين الذين يقعون فقي قبضة المسلمين (18).

غير أن الحضور المسيحي قد تدغم إثر احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 م. وذلك حين سعى قنصل فرنسا إلى الباي حسين بن علي قصد التنازل عن ربوة قرطاج بيرصا لفائدة فرنسا من أجل إنشاء معبد تخليدا لذكرى لويس التاسع الذي توفي في ذلك المكان سنة 1270 للميلاد (19). وقد استجاب الباي لهذا الطلب دون النظر في عواقبه وما ينطوي عليه من نتائج سلبية الأمر الذي فتتح الباب على مصراعيه في وجه الحضور المسيحي في تونس، وشجع على التكاثر داخل مدن الإيالة، إذ بلغ عدد المسيحيين سنة 1856 م قرابة السبعة الاف [7670] نسمة. ثم تطور هذا العدد بين 1856 م و1857 م ليصل إلى حوالي [12064] نسمة يؤطرها حوالي 21 راهبا داخل حوالي 9 كنائس. كان حظ مدينة تونس 12 راهبا. وكنيسة واحدة (20).

وتغيرت أوضاع إقامة المسيحيين بعد احتلال الجزائر وأصبحوا يعيشون في احترام وأمان شامل، مثلما أكد أحد أعضاء البعثة الفرنسية التي جاءت لتستطيع أحوال تونس العاصمة كما في بقية البلاد في ظل الأمن الشامل، وهم محترمون غاية الاحترام. ولكن وضعيتهم قبل احتلال الجزائر لم تكن على هذا النحو مطلقا فقد كان وجودهم في الإيالة التونسية خاضعا لشروط عسيرة ومذلة كما هو الشأن في غيرها من البلاد البربرية .. (21).

(18) الحركة التبشيرية في تونس، ص 132 من حوليات الجامعة التونسية، المصدر السابق.

(19) A la nouvelle Eglise d'Afrique ou le catholicisme en Algérie, en Tunisie et au Maroc p. 230.

(20) المصدر السابق نفسه.

(21) Pellessier, description de la régence de la régence de Tunis, Paris, 1853, p.p. 51 - 52.

وتطوّر الحضور المسيحي ليصل إلى حدود 16287 كاثوليكيا سنة 1877م أي قبيل الاحتلال بأربع سنوات 1881 م.

وصحب ذلك التطور وفود بعثات تبشيرية شملت كل من أخوات القس يوسف «Les sœurs de Saint Joseph» وأخوان المذهب المسيحي «Frères de la doctrine chrétienne» وأخوان إفريقيا البشرين. Les frères missionnaires d'Afrique. وقد استخدمت تلك البعثات طرقا تبشيرية عديدة : كالطب والتعليم والوعظ هادفة إلى إدخال الناس إلى المسيحية.

والذي تجدر ملاحظته أن هذا التطور للحضور المسيحي ما كان ليصل إلى هذه الدرجة لولا جو التعايش الذي ساعد على توفير مناخ للإقامة والاستقرار وممارسة الشعائر من ناحية، وتزايد نفوذ فرنسا السياسي والاستعماري والتبشيري من ناحية أخرى.

علاقة التونسيين المسلمين بأهل الذمة المسيحيين :

إن حرص البايات الحسينيين على تطبيق أحكام الدين الخفيف في شأن أهل الذمة من غير المسلمين، ساعد على إرساء تفاعل بين مختلف الأجناس التي تواجدت على أرض الإيالة، إلى حدّ إقدام الباي أحمد باشا باي على استصدار أمر سنة 1261 هـ، يقضي بتوسيع كنيسة العاصمة بباب البحر والتي خصّص له مبلغا ماليا من ميزانية الدولة لإجراء إصلاحات وترميمات احتاجت لها تلك الكنيسة الكاثوليكية (22).

وإنّ عرض أمثلة أخرى من صنو ما قام به أحمد باي على سبيل الذكر لا على سبيل الحرص تكشف عن طبيعة العلاقات التي عكستها المعاملات بين المسلمين والمسيحيين خلال العهد الحسيني الأول 1705 م - 1881 م | . فهذا حمودة باشا باي | تولى الحكم سنة 1782 م | كان يسمح للمسيحيين بممارسة طقوس ديانتهم بحرية تامة. وكان هؤلاء

(22) أحمد ابن أبي الضياف، الاتحاف، 89/4 - الدار التونسية للنشر - تونس 1990.

وحتى الأرقاء منهم يؤمّون كنائسهم في أي وقت أرادوا. وكانوا يتكاثرون فيها خاصة في عيدي الميلاد والفصح⁽²³⁾.

كما شهد عهده دخول أكبر عدد من المسيحيين إلى الإسلام رغبة منهم في أن يصبحوا مواطنين تونسيين على ما ذكر أحد الرحالة البريطانيين إذ كانوا لا يرغبون في العودة إلى أوطانهم. ويذكر هذا الرحالة أنّ الأرقاء من المسيحيين بتونس هم أسعد حالا من أمثالهم في أوروبا⁽²⁴⁾.

كما كان حمودة باشا يعامل النصارى من الأطباء معاملة ملؤها التقدير والاحترام وكذلك كانوا يستقبلون بكل ترحاب من قبل الأهالي⁽²⁵⁾.

وكان العديد من الأرقاء الأوروبيين الذين كان القراصنة التونسيون يستولون عليهم من الأطباء والرهبان والرجال المثقفين يعاملون معاملة خاصة تتم عن احترام الأهالي لهم⁽²⁶⁾.

لقد كان للباي حمودة باشا عناية عظيمة بالوافدين لما يعلم فيهم من نفع المملكة، وكان يوصي بإعانتهم، وتسهيل أمورهم⁽²⁷⁾. وكان يدفع بالأجانب الى احترام عادات وتقاليد البلاد ولا يسمح بالخروج عليها، مثلما أشار ذات يوم، وهو مار بباب البحر إلى رنين ناقوس دار قنصل الفرنسيين حين أرسل له قائلا إنّ هذا الناقوس تنفّره طباع المسلمين ولكل بلد عادات نطلب منكم إزالته، فنفذ القنصل ذلك الطلب⁽²⁸⁾.

(23) د. رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا، 327، منشورات الجامعة التونسية 1980م.

(24) المصدر نفسه، 328.

(25) المصدر نفسه، 315.

(26) المصدر نفسه.

(27) أحمد بن أبي الضياف، الاتخاف 94/5.

(28) المصدر نفسه.

ومما يعكس سعي بايات تونس إلى معاملة الوافدين على الإيالة معاملة إنسانية في كثير من الأحيان سبقهم إلى تحریم الاسترقاق منذ سنة 1846 م. وفي ذلك دلالة على تجذر روح التسامح مع الآخر، والعمل على تكريس مبادئ التعايش بين الأجناس مهما اختلفت أصولهم ودياناتهم.

ومما يبرز وجها آخر لطبيعة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين ما أورده المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب من مثال يعكس مدى تسامح الحسينيين وإكرامهم لمخالفهم في الدين، وأداء حق الضيافة كما حدث خلال عام 1818 م مع زوجة سلطان الإنجليز جورج الرابع حين زارت الملكة فأكرم حسين باي الحسيني وفادتها. «وكانت زوجته فاطمة عثمانة خير معين له على هذه المهمة ذلك أن الملكة كارولينا رغبت في فداء أسارى النصرى المقيمين بالخرصة التونسية. فسبقتها الأميرة فاطمة بتسريح كافة الأسارى خدّمة قصور الإمارة من غير فداء إكراما وإجلالا للضيافة⁽²⁹⁾ فحمت الدولة الإنجليزية هذه المزية وقدرتها حق التقدير.

وفي هذا السياق نجد المشير محمد باشا باي [1855 - 1859 م] يصدر عهد الأمان⁽³⁰⁾ يؤكد فيه ضمن أحد عشر بندا على تأكيد الأمان لسائر الرعية. وسكان الإيالة على اختلاف أديانهم، وألسنتهم، وألوانهم، في أبدانهم المكرمة، وأموالهم المحرّمة، وأعراضهم المحترمة، ويعلن فيه ضمن القاعدة الثالثة [البند الثالث] عن التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة في استحقاق الإنصاف.

كما أشارت القاعدة الرابعة إلى أنّ الذمي لا يجبر على تبديل دينه، ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانتة، ولا تتمتع مجامعهم، ويكون لهم الأمان من الإذاية والإمتهان لأنّ ذمتهم تقتضي أن لهم مالنا وعليهم ما علينا.

(29) حسن حسني عبد الوهاب، شهيّرات التونسيات، ص 148، طبعة 2 مزيدة ومنقحة.

(30) ابن أبي الضياف، الاتحاف، 270/9/4.

وكان قانون عهد الأمان الذي أصدره محمد باشا باي. ولو في ظل تهديد قناصل الدول الأجنبية حرصا منهم على ضمان زمن رعاياهم وحماية مصالح بلدانهم - عاكسا لإرادة التعايش بين أصحاب الأديان المختلفة داخل الإيالة وساعيا إلى تحقيق الإنصاف كيف ما كان.

هذا وكان عهد الأمان سند المشير محمد الصادق باي الذي أصدر قانون عهد الأمان⁽³¹⁾ الذي سعى إلى تكوين مجالس ذات اختصاصات متنوعة، وحرص على تقنين المساواة بين الناس على اختلاف أديانهم في الحقوق والواجبات التي منها التسوية بينهم في الأنفس، والأموال، والأعراض إلا بحق ما يوجبه الشرع والقانون.

غير أن القانون لم يكتب له النجاح خاصة بعد إبطال العمل به وذلك بتوقيف جلسات المجلس الكبير في 30 أبريل 1864 م فباءت كل محاولات السعي إلى الإصلاح بالفشل بسبب ما آلت إليه أوضاع البلاد والعباد من وهن وضعف وتفكك اجتماعي وسياسي، وتربص أجنبي للانقضاض على الإيالة فكان انتصاب الحماية بتونس سنة 1881 م.

وتعرف البلاد بعد ذلك تغيرا في موازين القوى وتصبح الكفة راجحة لصالح المستعمرين الفرنسيين، ودعاة التبشير منهم، فتتسارع حركة التبشير على يد الرهبان والقساوسة لنشر المسيحية بين المسلمين بكل ما أوتيت من قوة.

وتوجهت تلك الحركة التبشيرية بانعقاد المؤتمر الأفغارسني بتونس في ماي 1930 م احتفاء بالذكرى الخمسين للاحتلال والذكرى المئوية لاحتلال الجزائر. فكان المؤتمر بمثابة حملة صليبية هادفة أساسا إلى إعادة مجد الصليب، ومواصلة رسالة كل من لويس التاسع، ومن جاء بعده من القساوسة، والرهبان الحاملين لمشعل المسيحية والسّاعين لتنصير العرب المسلمين.

(31) الإخفاف، 11/5 - 13.

الأمر الذي أثار التونسيين، وجعلهم ينددون بالمؤتمر وبأهدافه، رافضين انعقاده على أرض تونس العربية المسلمة الراعية للمواخاة والتعايش، والتسامح بين الأديان. كيف لا وقد عكس تاريخ تونس منذ دخول الإسلام إليها تعلق أبناء البلاد بحماية الأقليات، ورعايتهم، والحفاظ على حقوقهم وصونها، دون إكراه للآخر على تبديل دينه، إذ له مالنا وعليه ما علينا. وهي القاعدة الذهبية التي كرّسها تاريخ تونس الطويل الهادف إلى تكريس التعايش مع الآخر، وعدم التصادم معه، والعمل على الحوار معه دون إقصاء.

فأين هذا من سعي منظمي المؤتمر الإفخرستي دعاة التنصير والتسييح في بلد غير بلدهم، وفي أرض غير أرضهم.

وتحرز تونس على استقلالها بعد تضحيات جسام سنة 1956 م. وتنزّل حرية المعتقد المكانة اللانقة بها ضمن دستور البلد، وفي الفصل الخامس تحديدا من دستور 1959 م، الذي ضمن حرية المعتقد وحماية حرية القيام بالشعائر الدينية ما لم تُخلّ بالأمن العام.

وينظم وجود الكنيسة ونشاطها بتونس وفق اتفاقية 27 جوان 1964 م بين الحكومة التونسية في ظل الاستقلال والكنيسة ومن يمثلها، والصادرة بالرائد الرسمي التونسي في 24 جويلية 1964 م طبقا للقرار 64 - 245.

وتتبوا حرية المعتقد مكانة بارزة في ظل التغيير الذي عرفته تونس في السابع من نوفمبر 1987 م في الاستفتاء الذي عرفته البلاد على الدستور في 26 ماي 2002 م فكانت قيم التسامح والإخاء والتضامن من القيم التي أقرها هذا الاستفتاء.

وجاء ذلك ترجمة لما عرفته تونس التغيير من تحوّل نوعي في مجال حقوق الإنسان، والدعوة إلى إقرار الحوار، والمناداة به بين الثقافات والحضارات والأديان، واعتباره ضرورة حضارية من شأنها المساعدة على

إرساء قيم السلام والإخاء والتعايش بين الشعوب، بالاستناد إلى القيم الإنسانية المشاعة بين البشر.

فكان ذلك التواصل بين حلقات تاريخ تونس، أرض الحوار وأرض اللقاء بين الثقافات والحضارات والأديان مرور بعهد قرطاج إلى عهد القيروان إلى تونس التسامح اليوم والمستقبل.

يأتي كل ذلك في تونس من أجل التأسيس لقيام حوار مثمر بين أبناء الأديان السماوية وخاصة بين الإسلام والمسيحية، والانتقال من مرحلة التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم على حده قول مؤلف كتاب «الإسلام والمسيحية»، والذي جاء فيه : «لن يكون هناك سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان ولن يكون هناك سلام بين الأديان ما لم يكن هناك حوار بين الأديان»⁽³²⁾.

تلك ومضات تراءت لنا أثناء تناول موضوع أسس العلاقات بين المسلمين والمسيحيين خلال العهد الحسيني، : ولن نجزم أننا تناولنا كل عناصر المداخلة بالتحليل الوافي، ولكن حسبنا تلك المصافحة الفكرية آملين أن نعود لإثراء تلك العناصر وإعطائها ما تستحق من التجلية.

(32) الإسلام والمسيحية، ص 8، تأليف اليسكي جورافسكي، ترجمة : د. خلف محمد الجراد - راجع المادة العلمية وقدم له : د. محمود حمدي زقزوق، وزير الأوقاف في جمهورية مصر العربية، كتاب «عالم المعرفة»، عدد 215، الكويت، نوفمبر 1996.

قائمة المصادر والمراجع

أ - العربية

- القرآن الكريم
- الحديث النبوي الشريف
- ابن أبي الضياف | أحمد |
- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، 1990 م ابن هشام.
- السيرة النبوية
- الإمام | رشاد |
- سياسة حمودة باشا، منشورات الجامعة التونسية، 1980 م.
- جورانسكي | أليسكو |
- الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 215، الكويت 1996.
- الجيلند | محمد السيد |
- الحوار مع الآخر، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر - 1999 م.
- الرفاعي | أنور |.
- النظم الإسلامية، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1973 م.
- زيدان | عبد الكريم |.
- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بيروت - لبنان - 1982 م.
- سمحرائي | أسعد |.
- الإسلام بن المذاهب والأديان، دار النفائس، بيروت - لبنان 1992 م.
- الشرفي | عبد المجيد |.
- حوليات الجامعة التونسية، العدد 8، السنة 1991 م.
- عبد الوهاب | حسن حسني |.

- شهيرات التونسيات، ط2، مكتبة المنار، تونس - 1966 م.

ب - المراجع الأجنبية

- Pons, la nouvelle église d'Afrique, ou le catholicisme en Algérie, en Tunisie, et au Maroc depuis 1930, Tunis 1930, p. 207.
- Pellessier, description de la régence de Tunis, Paris, 1853, p.p. 51 - 52.